تزامن في الحدث وافتراق في الدلالة
الرؤيا   الكيد   القميص
في سورة يوسف

م.م مسلم هوني   م.م حميد يعكوب

أن القصص القرآني كغيره من الأجناس التي اشتغل عليها (علم السرد) بغية الوصول إلى الأنظمة الداخلية والقوانين التي تمّ بها السرد واستقصاء آليات ألحكي واستجلاء العلاقات البنائية التي نتج عنها المبنى الحكائي لهذا الجنس من الفنون .

((سورة يوسف)) وان كانت من القران إلا أنها تمثل بين طياتها الخصوصية الحكائية المتمظهرة بعناصرها البنائية ، السرد القصصي ، الأشخاص ، الحبكة ، المكان ، الزمان ، الثيمة ، فضلا عن وسائل هذا السرد ، الحوار الوصف (١) لذلك عدّ السرد القصصي في القران من أهم المراكز الاعجازية التي سجلت حضورا في هذا القصص ، التي أسهمت في تصوير الواقع بما يتلمسه الحس ويستلهمه الذوق ، وعلى الرغم من أن مناخها الفني قد افرغ بعد عزله عن أسلوب الراوي المصطنع(٢) الذي لا وجود له إلا على الورق وان قصة يوسف في القران شكلت كتلة متجانسة مصاغة من هذه العناصر (الرؤيا ، الكيد ، القميص) على نحو خاص ، فقد اشتغلت هذه العناصر في القصة في تزامن مشهود أسهم في تشكيل بنية لسانية أسفرت عن وجود بؤر سردية متغيرة في كل مشهد ونسق بنائي جاء وفق هذه البؤر هو (نسق الدوائر) الذي اعتمد على بؤر حدثية متكررة وتكرار هذه البؤر لايعني تكرار الحدث بل تنويعة وتنميته إلى اشكال تحافظ على تراتيبية الحدث في اعتماد السابق والتأسيس للاحق الأمر الذي انتج قصة مفتوحة ولكنها ذات سرد مغلق ويمكن تشبيه هذا السرد المغلق بالدوائر المائية الناتجة عن القاء حجر في الماءفالدائرة الثانية تالية واكبر وهي في الوقت نفسة قائمة وهذه هي خصوصية قصة يوسف التي ابتدعت خطها البنائي الذي يمكن ان نسميه بنسق الدوائر وليس الحجر الا اثافي البعد السردية التي كلما تلتقي بارض النص او تصطدم بشخصيات تنتج دائرة بنمط أوسع .

الرؤيا ، في المشهد الأول من القصة التي أعلن عنها القران (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)(٣) كانت الحبكة الرئيسة التي أثارت أحداث القصة ودفعتها باتجاه ما أنبأ عنه يعقوب (ع) ((فيكيدوا لك كيدا)) ولعلّ وجود حرف العطف (الفاء) و (المصدر المنون) يشيران بشكل واضح إلى تمخض عملية الكيد العظيم مباشرة ، وكأن الرؤيا كانت سبب تحريك الحدث داخل القصة .

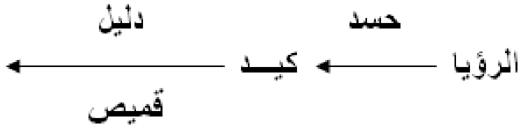

الرؤيا حركت مشاعر عدائية لدى اخوة يوسف "ع " تم ترجمته إلى كيد محاك بطريقة آدمية ، دفعتهم إلى الإتيان بوسائل كيدية مفترضة غير مطابقة للواقع (جَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ) (٤) فلم يكن القميص عندما جيء به إلى أبيهم ممزقا بل كان ملطخا بمقدار الدم (٥) الكاذب .

القميص هنا في هذا المشهد كان أداة جرمية ليس لها مرجع في الواقع وهو رمز إدانة ورفع ليوسف فلم يكن القميص إلا وسيلة من وسائل الرحمة والخلاص من الحقد الذي ابتلي به .

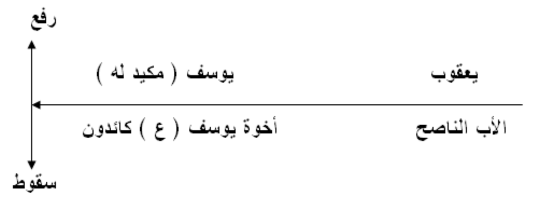
رفع
يعقوب
يوسف (مكيد له)
الأب الناصح
أخوة يوسف (ع) كائدون
سقوط

الرؤيا كانت في المشهد الاول من القصة بؤرة الحدث وان الكيد والحسد هما مايكتنف هذا الحدث من اعاقة عن التحقق فكان الفعل الحسدي بالدليل وكان الفعل الكيدي بالقميص وهما قد تولدا عن تلك الموانع .

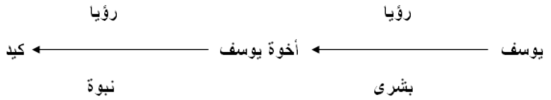
رؤيا
رؤيا
يوسف
أخوة يوسف
كيد
بشرى
نبوة

تتحرك القصة باتجاه اختبار ثانٍ يتعرض له يوسف (ع) تمظهر بالكيد الذي كان الحبكة الرئيسة في المشهد الثاني ، الكيد في هذه المرحلة جاء نتيجة رغبة عارمة استقرت في نفس زوج العزيز ، حينما سدت الأبواب أمامها ، ولم يكن من أمل في الخلاص فتحت امرأة العزيز باب الكيد لترمي به يوسف ((فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) (٦)

الكيد هنا اتخذ طريقين الأول تبرئة ساحتها عند زوجها ، الثاني تخويف يوسف أملا في أن يفعلها في مرة أخرى في الخفاء(٧).

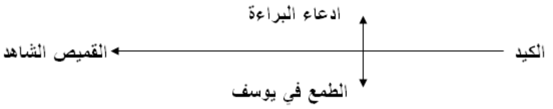
ادعاء البراءة
الكيد
القميص الشاهد
الطمع في يوسف

في هذا المشهد نرى أن دلالة الكيد قد تدحرجت نحو دلالة أخرى فبعد أن جاءت بثوب العدوان على يوسف حركه الحسد والمنافسة على حب الوالد نرى في هذا المشهد الذي يقدمه لنا القران في صورة متحركة اشتغلت فيها الأفعال ((اسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (٨) فخرجت دلالة الكيد من جعبة الغش والخداع والحيلة إلى التبرئة من التهمة ، فضلا عن إبقاء الرغبة قائمة في انتظار التحقق ((وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ)(٩) وإذا ما جئنا إلى العنصر الثاني في هذا المشهد نرى بوضوح أن القميص يعلن نفسه الشاهد الوحيد بعد الإله الذي اثبت براءة يوسف (ع) وأنها من ذوات الكيد (١٠) ولو أننا حفرنا عميقا في دور القميص في هذا المشهد لوجدناه قد لعب دورا مغايرا لما كان في المشهد الأول ، فالتحويل في الخطاب اللفظي الذي ساير التحولات البنائية للنص القرآني قرّر أمورا عديدة :- الاختلاف الجلي في دور القميص ، المشهد الأول كان القميص لا يخرج عن كونه شاهد إثبات مزيف جاء به أخوة يوسف من اجل إكمال حلقة الجريمة ، في المشهد الثاني كان القميص قد لعب دور المنقذ والشاهد معا على كرامة وشرف يوسف (ع) غير أن كلا القميصين كانا ليوسف وقد أشرا نسقا تحويليا في بنية القصة أفضت إلى مرحلة جديدة في حياته .

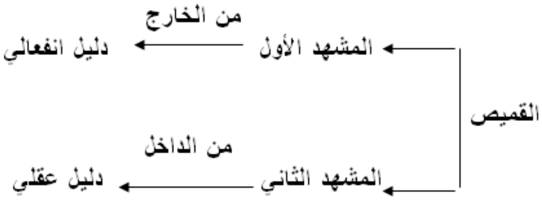
من الخارج
المشهد الأول
دليل انفعالي
القميص
من الداخل
المشهد الثاني
دليل عقلي

القميص في المرحلة الثانية شاهد اتفق مع ظاهر الفعل والاستدلال (١١) غير انه لم يكن كذلك في المشهد الأول فكان القميص (الحبكة) في هذا المشهد منفذا إلى الحبكة الجديدة (الرؤيا) التي تكفلت إخراج يوسف من حبسه الذي كان رمزا للظلم إلا انه لم يكن رمزا للتوقف ، كان السجن صورة للحرية استطاع يوسف (ع) أن يتنفس أعمالا ما كان يستطيع تنفسها لولاه)). (١٢)

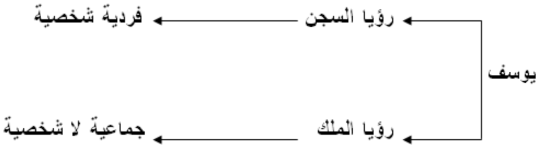
رؤيا السجن
فردية شخصية
يوسف
رؤيا الملك
جماعية لا شخصية

كلتا الرؤيتين قد أفاد منهما يوسف (ع) فالأولى قادت إلى الثانية إلا أن الثانية قد جعلته تحت الأضواء ، وفي قلب الحدث بدلا من الهامش الذي يحاول بكل ما يملك أن ينحى به بعيدا عن دوره الرئيس وهو حرمان الأمة من هذا الفيض الإلهي .

الرؤيا الثانية حاولت أن تحدث انعطافة مهمة في حياة يوسف (ع) وفي سير القصة نحو استكمال حلقتها الأخيرة وهي تتجه صوب حل عقدتها ((في مناخ روحاني تشعر به في مواقف وكلام الشخصيات التي تحرك المشهد القرآني)) (١٣).

ولكن السرد في هذه القصة يبدو راغبا في الاستمرار لان الحل ما زال غير واضح الملامح ، فالحل المطروح الآن لا يبدو نهائيا ، الأمر الذي يعني توقف السرد ، فالقصة تسعى بكل ما تملك إلى الامساك بخيوط عناصرها خشية التشظي ، والانزلاق في مجاري جزئية لاتتفق مع ثوابت التكثيف والاختزال ، التي ميزت القصة القرآنية ، ولو أننا استقرأنا القصة لوجدنا أن السرد يبدأ من المقدمة إلى نهايتها مرورا بالعرض عن طريق حل الرؤيا التي كانت لغزا محيرا وقد فعلت فعلتها في توجيه السرد ، إذ شكلت علامة في انعطاف القصة في خطها البياني ، في اتجاه النزول فنسق النص زمنيا هو تتابعي اى نسق تقليدي يبدأمن أول القصة ثم تتابعا الى نهايتها وهو مايمكن ان يشكل نسقا متواترا في القصص القراني ((تأتي الوقائع " الأحداث " والمناظر استجابة لما يثيره المنظر السابق من تساؤلات فيأتي المنظر التالي ليرضي تلك الرغبة ويثير جملة أخرى من التطلعات إلى المعرفة يليها ما بعده ... حتى تنتهي المشاهد كلها(١٤)

اما في قصة سيدنا يوسف (ع)فان النسق الحدثي مكمن الإبداع في القصة لانه يعتمد على بؤر حدثية متكررة وتكرار البؤر لايفضي الى تكرار الحدث بل الى تنويعه وتنمية فلا نجد تكرارا تراكميا وانما تكرارا ناميا فالقميص يمكن ان يثير في بؤرته الاولى في القارىء الاحساس بالريبة والتزيف ولكنه في البؤرة الاخيرة يشيع الاحساس بالارتياح وكانه ترياق بل هو كذلك وكذلك الكيد يقف منه القارىء موقفا سلبيا شاجبا له ولمصطنعيه وهو مالايتكرر في البؤرة الاخيرة .

وقبل أن تحاول القصة لملمة خيوطها تحقق انعطافة في سير السرد وتكون مرحلة من المراحل الممهدة للنهاية المرضية تفرح يوسف (ع) وتحقق الترابط القوي الذي تراه في كل قصة من القران حينما حاول يوسف (ع) التخطيط للاحتفاظ بأخيه بالخطة التي رسمها له الله تعالى بطريقة سلسة خالية من التعقيد والعنف (١٥)، ((كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ)) (١٦) أي ((علمناه إياه وأوحينا به إليه (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) تفسير للكيد وبيان له)) (١٧) ، وتأتي أهمية هذه المرحلة بعد ما ترتب عليها من أمور صبت جميعها في السير إلى نهاية القصة التي ختمت بقول الشخصية المحورية يوسف (ع) وهو ختام المنتصر ((وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) ([١٨]) تحقق الحلم بالتاويل الرمزي للصورة المدركة فكانت الشمس والقمر هما الابوان وكان الاحد عشر كوكبا هم اخوته . (١٩)

والآية تحدد محورين مهمين – الأول – تجسيد هذه الرؤيا واقعا ملموسا ، الثاني خروجه من السجن ومجيء أهله من البدو ، بعد ذكر ما كان بينه وبين إخوته من قبل ولعل الفضل يكمن في ((أن يوسف كان واقفا على حقائق الحوادث ومطلعا على بواطنها التي تؤول إليها في الواقع)) (٢٠) والقميص كان من بين الوسائل المهمة التي حققت هذه الرؤيا بعد اكتمال عناصرها على الأرض ، وحضور أطرافها في المشهد الثالث الذي قصه القران ((اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ) (٢١) ،((فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ) (٢٢) .

وهنا كان القميص سببا في عودة البصر إلى يعقوب بعد أن ابيضت عيناه من الحزن وأخيرا فان القميص ساعد على حل عقدة القصة فكان سببا في حضور أهم عنصر في العائلة وهو الأب ومن ثم أبنائه بغية تحقيق الهدف الرئيس وهو (النبوة) ليوسف (ع) وإعلانه نبيا بمشاهدة أبويه وإخوته .

ولعل القيمة الدلالية للقميص في سورة يوسف " ع " تكمن في انه كان دلالة اثبات للحقيقة في اوضاعه التي جاء بها في المشهد الاول نطق القميص دلاليا ببراءة الذئب حينما لم يظهر أي خرق له فكان مستند ادانة لا دليل براءة وفي المشهد الثاني كان القميص الممزق مستند ادانة وبراءة ليوسف " ع " ايضا اما في المشهد الاخير فقد احدث القميص فعلا واضحا وخطيرا وهو رد البصر الى الاب الحزين ومن هنا استطاع القميص الكشف عن القضايا السلبية في القصة ، ثم المعالجة لهذه السلبيات حتى عدّ طرفا في احداث القصة لذلك تحول القميص الى قيمة فنية فيها. (٢٣) ويمكننا ان نجد في القصة تناغما رقميا بين بؤرها الثلاث ،والمفاصل الحديثة،فلو اردنا ان نقسم النص حديثا فانه ينقسم الى ثلاثة ايضا:

الرؤيا---البئر ثم السيارة---السجن ثم مابعد السجن ---النهاية وهذا التقسيم يسهل لنا اكتشاف الالتقاء بين المراحل الثلاث ،فهناك صلات وثيقة وصلة كبيرة بين القسم الاول والثاني فكلاهما ينتهي نهاية تشابهية (

البئر- السجن)وان الكيدفيها سلبي ولايتحول الى ايجابي الامع القسم الثالث ،اما التشابه بين الثاني والثالث فيكمن في بؤرة القميص فالقميص في دلالته الاولى سلبي لكنه يتحول مع الثانية والثالثة الى ايجابي .اما البؤرة التي تحافظ على حفظ الثبات هي (الرؤيا) التي تظل ايجابية في الاقسام الثلاث وهذا يدعواالى ترسيمة نبين فيها عمل هذه البؤر السردية .

الرؤيا ،	**١- ايجابي**	**٢- ايجابي**	**٣-ايجابي**
الكيد،	**١- سلبي**	**٢-سلبي**	**٣- ايجابي**
القميص،	**١- سلبي**	**٢-ايجابي**	**٣- ايجابي**

ويتضح لنا عبر هذه الترسيمة البسيطة ان هذه البؤر الثلاثة قد أنتجت رؤية متفائلة وذلك للمساحة التي احتلتها في هذه القصة

واخيرا فان القصة اعتمدت على مادة الحلم والكيد والقميص اعتمادا شكل ملمحا فنيا من حيث اليات العمل الحكائي والتي استكملت باضافة مادة التفسير لهذا الحلم (الرؤيا) من بطلها (يوسف " ع ") فان القصة قد سارت بتوالي الاحداث دون ان يعرقل مسيرها عائق فهي تسير وفق بنائية بالغة الجمال من حيث تداخل هذه العناصر والتحامها وصلة بعضها ببعض وهي على التوالي الرؤيا ، الكيد ، القميص ، ثم نموها الذي ما ان تفرقت حتى تصب اخيرا في النهاية المرضية . (٢٤)

الهوامش:

(١) تقنيات المنهج الأسلوبي ١٢٧ .
(٢) الصورة الفنية في المثل القرآني ٢٠٨.
(٣) يوسف الآية
(٤) تقنيات المنهج الأسلوبي ١٢٧ .
(٥) ينظر : بحوث في النبوة الخاصة (يوسف الصديق) رؤية قرآنية : ١٨٩ .
(٦) تقنيات المنهج الأسلوبي ١٢٧ .
(٧) تفسير الكشاف : ج٢ : ٤٥٨.
(٨) ينظر : يوسف الصديق : ١٩٠.
(٩) ينظر : يوسف الصديق : ١٩٠.
(١٠) ينظر : يوسف الصديق : ١٩٠.

(١١) ينظر : مجمع البيان : ج٥ / ٦ : ٢٢٦.
(١٢) تقنيات المنهج الأسلوبي : ١٨٥.
(١٣) محمد الحقيقة العظمى : عزيز السيد جاسم : ٤٧٩.
(١٤) المصدر نفسه : ٢٤٩.
(١٥) قصص القران ، مقتبس من تفسير الأمثل : ١٦٢ .
(١٦) قصص القران ، مقتبس من تفسير الأمثل : ١٦٢ .
(١٧) تفسير الكشاف : ٤٩١ .
(١٨) تفسير الكشاف : ٤٩١ .
(١٩) ينظر : مفهوم النص دراسة في علوم القران ، د. نصر حامد ابو زيد ، ص٥١ .
(٢٠) يوسف الصديق : ١١٠ .
(٢١) يوسف : ٩٣ – ٩٦ .
(٢٢) يوسف : ٩٣ – ٩٦ .
(٢٣) ينظر : تقنيات المنهج الاسلوبي ، ص١٥٥ .
(٢٤) ينظر : قصص القران الكريم دلاليا وجماليا ، تاليف د. محمود البستاني ، ج١ ، ص٢٧٦ .

المصادر

القران الكريم .
ادب القصة في القران الكريم ، دراسة تحليلية كاشفة عن معالم الاعجاز ، د . عبد الجواد محمد المحص ، حوش عيسى ، بحيرة ، ٢٠٠٠/٢/٢٠، الاسكندرية .
بحوث في النبوة الخاصة (يوسف الصديق) السيد كمال الحيدري ، بقلم محمود نعمة الجياشي ، دار فراقد للطباعة والنشر ، ط١ ، ايران ، **٢٠٠٥.**
تفسير الكشاف من خصائص غوامض التنزيل وعيوب الأقاويل في وجوه التأويل ، الإمام جاد الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٢٨ هـ)، الناشر الكتاب العربي .
تقنيات المنهج الاسلوبي في صورة يوسف دراسة تحليلية في التركيب والدلالة ، د. عبد الهادي الدجيلي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ٢٠٠٣ .
الصورة الفنية في المثل القرآني دراسة نقدية وبلاغية ، د: محمد حسين الصغير ، منشورات وزارة الثقافة والأعلام ، دار الرشيد للنشر ، ١٩٨١ .
مجمع البيان في تفسير القران ، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسين الطبرسي ، دار إحياء التراث ، بيروت ، وقف على تصحيحه وتحقيقه والتعليق عليه الفاضل المتتبع الحاج باسم المحلاتي .
قصص القران الكريم دلاليا وجماليا ، تاليف الدكتور محمود البستاني ، ج١ ، ط١ ، مؤسسة السبطين " ع " العالمية ، ايران ، ١٩٨٣ .
قصص القران مقتبس من تفسير الامثل ، المؤلف : اية الله العظمى ناصر مكارم الشيرازي ، اعداد وتنظيم السيد حسين الحسيني ، مؤسسة انصاريات للطباعة والنشر ، ايران ، ٢٠٠٥ .
محمد الحقيقة العظمى ، تاليف : عزيز السيد جاسم ، طبع في دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٧٨ .
مفهوم النص ،د . نصر حامد ابو زيد ، دار المركز الثقافي للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٩٨.
يوسف الصديق.